بسم الله الرحمن الرحيم

عباد الله: الدهورُ والأعوامُ، والليالي والأيامُ سننٌ لله تتعاقبُ في هذهِ الدنيا، ومنْ منةِ الله تعالى على عبادهِ ورحمتهِ بهمْ، أنْ نوعَ لهمُ الفصولَ في العامِ الواحدِ. بينَ صيفٍ وشتاءٍ، وربيعٍ وخريفٍ، لتتمَّ بذلكَ مصالحهمْ، ويستقيمُ معاشهمْ.ولأننا في فصلِ الشتاءِ، فلعلنا نقفُ اليومَ بعضَ الوقفاتِ حول هذا الفصل:

1-الوقفةُ الأولى: إنَّ مجيءَ الشتاءِ وعودتهِ، يعني انقضاءُ عامٍ كاملٍ بفصولهِ المختلفةِ، وهذا يشعرنا بضرورةِ تذكرِ المصيرِ المحتومِ والنهايةِ الأكيدةِ التي تصيرُ إليها كلُّ المخلوقاتِ :{يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُوْلِي الأَبْصَارِ}[النور:44]، فيا سعادةَ منِ استعدَّ بالخيراتِ وقدمَ أمامهُ الأعمالَ الصالحاتِ، ويا خسارةَ منْ فرطَ في عمرهِ وضاعتْ عليهِ لحظاتُ حياتهِ وقتلَ أوقاتهُ فراحتْ هباءً منثورًا .

2-الوقفة الثانية: حفظ المسلم لوصية النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بتجنبِ لعنِ الشتاءِ وسببهِ، فعنْ أبي هريرةَ عنِ النبيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ قالَ: ((قَالَ اللهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ))، والشتاءُ جزءٌ منَ الدهرِ، فربما تضررَ منْ جراءِ هذا البردِ سواءٌ في نفسهِ أوْ ولدهِ أو في عمله أو حتى في سيارته، فيحصلَ عندئذٍ الوقوعُ في المحذورِ .

3-الوقفة الثالثة: أنَّ هذا البردَ الذي ننزعجُ منهُ؛ نفسٌ منْ أنفاسِ جَهَنَّمَ؛ وجزءٌ يسيرٌ جدًّا مما في النارِ منَ العذابِ والنكالِ، قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ: يَا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ، نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَهُوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ)).

وما ذاكَ إلا لِتَذْكِيرِ العِبَادِ فِي الدُّنْيَا بِنَارِ الآخِرَةِ؛ لِيَتَّقُوا مَا يُورِدُهُمْ إِيَّاهَا، وَيَأْخُذُوا بِأَسْبَابِ النَّجَاةِ مِنْهَا .

4-الوقفة الرابعة: ما يحصلُ منَ الجهدِ والمشقةِ عندَ حضورِ صلاةِ الجماعةِ خصوصًا صلاةُ الفجرِ فالمصلي يحتاجُ إلى عزيمةٍ قويةٍ لمفارقةِ دفءِ الفراشِ، وقطعِ لذةِ النومِ واستغراقهِ، وهذا منَ التوفيقِ والإكرامِ للعبدِ، وَإِذَا اسْتَحْضَرَ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ الْكَرَامَةَ الْعَظِيمَةَ لَهُ عِنْدَ اللَّـهِ تَعَالَى هَانَتْ عَلَيْهِ مَكَارِهُ الْوُضُوءِ وَالِاغْتِسَالِ وبُرُودَةِ المَاءِ ونَزْعِ الْأَلْبِسَةِ الثَّقِيلَةِ، وَحَسْرِ الْأَكْمَامِ، وَاسْتِيعَابِ الْأَعْضَاءِ بِالْغَسْلِ؛ فِفِي الحَدِيثِ: ((أَتَانِي رَبِّي

فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّي وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلَأُ الأَعْلَى؟ قُلْتُ: رَبِّ لَا أَدْرِي، فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ فَوَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ ثَدْيَيَّ فَعَلِمْتُ مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقُلْتُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلَأُ الأَعْلَى؟ قُلْتُ: فِي الدَّرَجَاتِ وَالكَفَّارَاتِ، وَفِي نَقْلِ الأَقْدَامِ إِلَى الجَمَاعَاتِ، وَإِسْبَاغِ الوُضُوءِ فِي المَكْرُوهَاتِ، وَانْتِظَارِ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، وَمَنْ يُحَافِظْ عَلَيْهِنَّ عَاشَ بِخَيْرٍ وَمَاتَ بِخَيْرٍ، وَكَانَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ))، فَإِذَا اسْتَحْضَرَ الْمُؤْمِنُ أَنَّ الْمَلَأَ الْأَعْلَى فِي السَّمَاءِ يَخْتَصِمُونَ فِي إِسْبَاغِهِ الْوُضُوءَ عَلَى الْمَكَارِهِ عَلِمَ قِيمَةَ إِسْبَاغِهِ فِي شِدَّةِ الْبَرْدِ، وَوَدَّ لَوْ تَوَضَّأَ لِكُلِّ حَدَثٍ؛ تَحْصِيلًا لِفَضْلِ إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ فِي الشِّتَاءِ.

5-الوقفة الخامسة: ما يحصلُ منْ جراءِ هذا البردِ منْ أمراضٍ وعللٍ كنزلاتِ البردِ والزكامِ ونحوها. وَهِيَ كَفَّارَاتٌ لِلْعَبْدِ؛ فَلَا يَضْجَرْ بِهَا، وَلَا يَشْتَكِ مِنْهَا، وَلَا يَتَسَخَّطْ بِسَبَبِهَا؛ كَمَا فِي حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ((أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ أَوْ أُمِّ المُسَيَّبِ فَقَالَ: مَا لَكِ يَا أُمَّ السَّائِبِ أَوْ يَا أُمَّ المُسَيَّبِ تُزَفْزِفِينَ؟ قَالَتْ: الْحُمَّى لَا بَارَكَ اللهُ فِيهَا. فَقَالَ: لَا تَسُبِّي الْحُمَّى، فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ، كَمَا يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ)) .

وَسَوَاءٌ أَصَابَتْهُ أَمْرَاضُ الْبَرْدِ أَوْ أَصَابَتْ أَطْفَالَهُ الصِّغَارَ فَتَأَلَّمَ لِأَلَمِهِمْ، وَسَهِرَ اللَّيَالِيَ لِأَجْلِهِمْ، وَتَكَلَّفَ فِي عِلَاجِهِمْ؛ فَهُوَ عَلَى أَلَمِهِ وَسَهَرِهِ لِأَجْلِهِمْ مَأْجُورٌ، وَمَا أَنْفَقَ فِي عِلَاجِهِمْ مَخْلُوفٌ، فَلَا يَضِيعُ لَهُ شَيْءٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مَا دَامَ صَابِرًا لَمْ يَجْزَعْ، وَرَاضِيًا لَمْ يَسْخَطْ .

6-الوقفة السادسة: ومنَ الوقفاتِ مواساةُ الفقراءِ والمحتاجينَ، وبذلُ الإحسانِ لهمْ، وذلكَ أنَّ فصلَ الشتاءِ يحتاجُ إلى مؤونة كثيرة منْ طعامٍ وكساءٍ، فيعجزُ الفقراءُ والمساكينُ عنْ تحصيلِ هذهِ المؤونةِ، روى ابنُ المباركِ أنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ يَتَعَاهَدُ رَعِيَّتَهُ إِذَا حَضَرَ الشِّتَاءُ، وَيَكْتُبُ لَهُمْ قَائِلًا: إِنَّ الشِّتَاءَ قَدْ حَضَرَ، وَهُوَ عَدُوٌّ فَتَأَهَّبُوا لَهُ أُهْبَتَهُ مِنَ الصُّوفِ وَالخِفَافِ وَالجَوَارِبِ، وَاتَّخِذُوا الصُّوفَ شِعَارًا وَدِثَارًا؛ فَإِنَّ البَرْدَ عَدُوٌّ سَرِيعٌ دُخُولُهُ، بَعِيدٌ خُرُوجُهُ.

فتذكروا وأنتمْ تحسونَ بأذى البردِ، تذكروا وأنتمْ مطمئنونَ في بيوتكمْ، مطمئنونَ بينَ أهليكمْ وأولادكمْ، تذكروا إخوانكمُ المستضعفينَ منَ الفقراءِ ممن شَرَّدَتْهُمُ القُوَى الظَّالِمَةُ الغَاشِمَةُ. فَهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ وَأَطْفَالُهُمْ فِي مَلَاجِئَ وَمُخَيَّمَاتٍ. لَا تَقِيهِمْ مِنَ الهَوَاءِ، وَلَا تَحْمِيهِمْ مِنَ الصَّقِيعِ، تَذَكَّرُوا أُولَئِكَ كُلَّهُمْ فَإِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، يَا تُرَى مَا هُوَ حَالُهُمْ وَقَدْ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الحِيلَةُ؟! وَمَا هُوَ حَالُ نِسَائِهِمْ وَأَطْفَالِهِمْ فِي هَذَا البَرْدِ القَارِسِ مَعَ شُحِّ

الطَّعَامِ وَقِلَّةِ اللِّبَاسِ، وَانْعِدَامِ وَسَائِلِ التَّدْفِئَةِ، إنَّ البلاءَ عليهمْ عظيمٌ، اجتمعَ عليهمْ ؛ الخوفُ والقتلُ والجوعُ، فمواساتهم دَالَّة عَلَى حَيَاةِ القُلُوبِ تِجَاهَ إِخْوَانِنا:((الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا)).

7-الوقفة السابعة: أنَّ الشتاءَ أقبلَ ببردهِ ومطرهِ، وطولِ ليلهِ وقصرِ نهارهِ، مما يجعلُ المرءُ يتساءلُ كيفَ يكونُ اجتهادهُ في عبادةِ ربهِ؟ وكيفَ يمكنُ للمسلمِ أنْ يستثمرَّ أيامَ الشتاءِ ولياليهِ في جني أكبرِ قدرٍ منَ الحسناتِ.

ففي الشتاءِ يقصرُ النهارُ فيسهلُ عندئذٍ الصيامُ منْ غيرِ مشقةٍ تلحقهُ، أوْ كلفةٍ تحصلُ لهُ منْ جوعٍ أوْ عطشٍ؛ وذلكَ لقصرِ نهارهِ، معَ برودةِ الجوِّ فيهِ؛ ومنْ ثمَّ فلا يشعر الصائمُ فيهِ بمشقةِ الصيامِ التي يشعر بها في أيامِ الصيفِ، فهذا ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ يقولُ إذا دخلَ الشتاءُ: ((مرحبًا بالشتاءِ، تنزلُ فيهِ البركةُ، يطولُ فيهِ الليلُ للقيامِ، ويقصرُ فيهِ النهارُ للصيامِ)).

وجاءَ في المسندِ والترمذيِّ وحسنهُ الألبانيُّ أنَّ الرسولُ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ: ((الصَّوْمُ فِي الشِّتَاءِ الْغَنِيمَةُ الْبَارِدَةُ))، ومعناها أنها غنيمةٌ حصلتْ بغيرِ قتالٍ ولا تعبٍ ولا مشقةٍ.

أما ليلُ الشتاءِ؛ فلطولهِ، كانَ فرصة ثمينة للقيامِ والتهجدِ والدعاءِ والاستغفارِ؛ حيثُ يتسنى للبدنِ أنْ يأخذَ حظهُ الوافي منَ النومِ، ثمَّ يقومُ بعدَ ذلكَ إلى الصلاةِ فيناجي ربهُ، ويدعوهُ.

ولعلَّ هذا أحدُ أسبابِ بكاءِ معاذِ بنْ جبلٍ فإنهُ لما حضرتهُ الوفاةُ جعلَ يبكي، واشتدَّ بكاؤهُ؛ فقيلَ لهُ: ما يبكيكَ؟ قالَ: إنما أبكي على ظمأ الهواجرِ، وقيامِ ليلِ الشتاءِ، ومزاحمةِ العلماءِ بالركبِ عندَ حلقِ الذكرِ.

8-الوقفة الثامنة: أنَّ هذا الموسمَ فرصةٌ عظيمةٌ لترسيخِ الإيمانِ في القلوبِ؛ فقدرةُ اللهِ في تغييرِ الأحوالِ أمرٌ عجيبٌ، حرٌّ شديدٌ، ثمَّ بردٌ شديدٌ، جفافٌ وقحطٌ، ثمَّ مطرٌ وغيثٌ، كلُّ هذا بقدرةٍ عجيبةٍ وإحكامٍ دقيقٍ لا يمكنُ لبشرٍ ولو اجتمعوا أنْ يحيطوا بذلكَ، فبقدرةِ منْ وقعَ هذا الأمرُ؟ ومنَ الذي أذنَ بهِ؟ ما يجري في السماءِ والأرضِ منْ تغيراتٍ هنا وهناكَ فهيَ بأمرهِ سبحانهِ، فحينما يذهبُ فصلٌ ويأتي فصلٌ فبإذنِ اللهِ، وحينما ترتوي أرضٌ وتجفُّ أرضٌ فبأمرِ اللهِ، وحينما تفتحُ السماءُ أبوابها بماءٍ منهمرٍ فبإذنِ اللهِ، وحينما تمسكُ السماءُ ماءها فبإذنِ اللهِ، فربنا هوَ قيومُ السمواتِ والأرضِ، وهوَ مالكُ خزائنِ السمواتِ والأرضِ.

وأخيرًا : فإنَّ مِنْ كَمَالِ نَعِيمِ أَهْلِ الجَنَّةِ أَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ فِيهَا حَرًّا وَلَا بَرْدًا قَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: عَلِمَ اللهُ تَعَالَى أَنَّ شِدَّةَ الحَرِّ تُؤْذِي وَشِدَّةَ البَرْدِ تُؤْذِي فَوَقَاهُمْ أَذَاهُمَا جَمِيعًا :{مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا}[الإنسان:13].

والحمد لله رب العالمين